مخطوطات ومطبوعات

الإمتاع والمؤانسة

تأليف أبي حيان التوحيدي صححه وضبطه وحققه الأستاذان احمد امين بك واحمد الزين

طبع في القاهرة سنة ١٩٤٤ في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الجزء الثالث ص ٢٣٠ عدا الفهارس

صدر هذا الجزء وهو الأخير من كتاب الإمتاع والمؤانسة (راجع الكلام على الأول والثاني في م ١٦ ص ٣٦٣ وم ١٧ ص ٥٤٤ من هذه المجلة) وفي هذا الجزء كطريديه كل ممتع من أحاديث ابي حيان مع الوزير ابن العارض في الاربعين ليلة التي سامره بهـا . ومن أهم ما في هذا الجزء ما نقله المسامر من وصف أحد البلغاء للتجار وقوله لا يوجد الأدب الا عند الخاصة والسلطان ومدبريه وأما اصحاب الأسواق فانا لا نعدم من أحدهم خلقاً ذميماً الى آخر ما قال فيهم [ص ٦١] وقول الوزير له : ان كان هذا الواصف عنى العامة بهذا القول فقد دخل في وصفه الخاصة أيضاً فو الله ما اسمع ولا أرى هذه الاخلاق الا شائعة في أصناف الناس من الجند والكتاب والتناء [الأعيان] والصالحين وأهل العلم لقد حال الزمان الى أمر لا يأتي عليه النعت ولا تستوعبه الأخبار وما عجبي الا من الزيادة على مرّ الساعات .

ومن أجمل ما فيه قول الوزير [ص ٨٥] «انه ضاق صدره بالغيظ» لما يبلغه عن العامة من خوضها في حديث الأمراء وسيرتهم وتتبع أسرارهم وانه همّ في الوقت بعد الوقت بقطع السنةٍ وأيدٍ وأرجلٍ وتنكيلٍ شديدٍ لعلّ ذلك يطرح الهيبة ويحسم المادة ويقطع هذه العادة . وقول أبي حيان ان عنده جوابين فيهما بعض الغلظة وقال ان الحق مر ومن توخى الحق احتمل مرارته فأراده الوزير على ايرادهما وقال : ليس يُنتفع بالدواء الا بالصبر على بشاعته وصدود الطبع عن كراهته فكان الجواب الأول مقتبساً من كلام شيخه ابي سليمان المنطقي وفيه تحليل سر خوض الناس في أمور الحكام وخلاصة الجواب الثاني ما رواه جماعة من الصوفية قصدوا الى جماعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من الزهاد في أيام الفتنة بخراسان وسؤال هؤلاء لأول ساعة عن الأخبار وما كان من الفتنة واستغرابهم ان يهتم أمثالهم لمثل هذه الأمور الدنيوية ، و كشف ابي الحسن العامري الفيلسوف لهم سر ذلك لما سألوه حلّ هذا الاشكال وكل ذلك ببيان عجيب يفهم منه روح ذاك العصر .

ومما حمله هذا الجزء فصل ممتع في الإرادة والاختيار والنفس تتشربه النفوس مهما كانت بعيدة عن معاناته لأنه كتب بذوق متناه . وسأل الوزير ليلة : من أين دخلت الآفة على أصحاب المذاهب حتى افترقوا هذا الافتراق وتباينوا هذا التباين وخرجوا الى التكفير والتفسيق واباحة الدم والمال ورد الشهادة واطلاق اللسان بالجرح والقذع والتهاجر والتقاطع . فكان الجواب : ان المذاهب فروع الأديان والأديان أصول المذاهب فاذا ساغ الاختلاف في الاديان وهي الأصول فلم لا يسوغ في المذاهب وهي الفروع . فقال : ولاسواء الأديان اختلفت بالأنبياء وهم أرباب الصدق والوحي الموثوق به والآيات الدالة على الصدق وليس كذلك المذاهب . فقيل : هـذا صحيح ولا دافع له ولكن لما كانت المذاهب نتائج الآراء والآراء ثمرات العقول والعقول منائح الله للعباد وهذه مختلفة بالصفاء والكدر والكمال والنقص وبالقلة والكثرة وبالخفاء والوضوح وجب أن يجري الأمر فيها على مناهج الأديان في الاختلاف والافتراق وان كانت منوطة بالنبوة . وبعد فما دام الناس على فطر كثيرة ، وعادات حسنة وقبيحة ، ومناشئ محمودة ومذمومة ، وملاحظات قريبة وبعيدة ، فلا بد من الاختلاف في كل ما يختار ويجتنب ولا يجوز في الحكمة ان يقع الاختلاف فيما جرى مجرى المذاهب والأديان ، الا ترى ان الاتفاق لم يحصل في تفضيل أمة على أمة ولا في تفضيل بلد على بلد ولا في تقديم رجل على رجل ، ولو لم يكن في هذا الأمر الا التعصب واللجاج والهوى والحمك والذهاب مع السابق الى النفس والموافق للمزاج والخفيف على الطباع والمالك للقلب لكان كافياً بالغاً بالانسان كل مبلغ . وشيخنا ابو سليمان يقول كثيراً ان الدين موضوع على القبول والتسليم والمبالغة في التعظيم وليس فيه « لم » و « لا » و « كيف » الا بقدر ما يؤكد أصله ويشد ازره وينفي عارض السوء عنه لأن ما زاد على هذا يوهن الأصل بالشك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقدح في الفرع بالتهمة . قال وهذا لا يخص ديناً دون دين ولا مقالة دون مقالة ولا نحلة دون نحلة بل هو سار في كل شيء في كل حال في كل زمان وكل من حاول رفع هذا فقد حاول رفع الفطرة ونفى الطباع وقلب الأصل وعكس الأمر وهذا غير مستطاع ولا ممكن .

ومما كتب به التوحيدي الى الوزير وهو ما يستدل منه انه كان سفير خير قوله يجب على كل من آتاه الله رأياً ثاقباً ونصحاً حاضراً وتنبهاً نافعاً ان يخدمك متحرياً لرسوخ دعائم المملكة بسياستك وريادتك قاضياً بذلك حق الله عليه في تقويتك وحياطتك . واني أرى على بابك جماعة ليست بالكثيرة — ولعلها دون العشرة — يؤثرون لقاءك والوصول اليك لما تجن صدورهم من النصائح النافعة والبلاغات الجدية والدلالات المفيدة ويرون انهم اذا أهلوا لذلك فقد قضوا حقك وأدوا ما وجب عليهم من حرمتك وبلغوا بذلك مرادهم من تفضلك واصطناعك وتقديمك وتكريمك والحجاب قد حال بينهم وبينك ولكل منهم وسيلة شافعة وخدمة للخيرات جامعة منهم — وهو أهل الوفاء — ذوو كفاية وأمانة ونباهة ولباقة ومنهم من يصلح للعمل الجليل ولرتق الفتق العظيم ، ومنهم من يمتع اذا نادم ويشكر اذا اصطنع ويبذل المجهود اذا رفع ومنهم من ينظم الدر اذا مدح ويضحك الثغر اذا مزح ومنهم من قعد به الدهر لسنه العالية وجلابيبه البالية فهو موضع الاجر المذخور وناطق بالشكر المنظوم والمنثور ومنهم طائفة أخرى قد عكفوا في بيوتهم على ما يعنيهم من أحوال أنفسهم في تزجية عيشهم وعمارة آخرتهم وهم مع ذلك من وراء خصاصة مرة ومؤن غليظة وحاجات متوالية ولهم العلم والحكمة والبيان والتجربة ولو وثقوا بأنهم اذا عرضوا انفسهم عليك وجهزوا ما معهم من الأدب والفضل اليك حظوا منك واعتزوا بك لحضروا بابك وجشموا المشقة اليك لكن اليأس قد غلب عليهم وضعفت منتهم وعكس أملهم ورأوا ان سف التراب أخف من الوقوف على الأبواب اذا دنوا منها دفعوا عنها فلو لحظت هؤلاء كلهم بفضلك وادنيتهم بسعة ذرعك وكرم خيمك وأصغيت الى مقالتهم بسمعك وقابلتهم بملء عينك كان في ذلك بقاء للنعمة عليك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصيت فاش بذكرك وثواب مؤجل في صحيفتك وثناء معجل عند قريبك وبعيدك والأيام معروفة بالنقلب والليالي ماخضة بما يتعجب منه ذو اللب والمجدود من جُدَّ في جده اعني من كان جده في الدنيا موصولاً بحظه من الآخرة ولأن يوكل العاقل بالاعتبار بغيره خير من أن يوكل غيره بالاعتبار به . ايها الوزير اصطناع الرجال صناعة قائمة برأسها قل من بغي بربطها أو يتأتى لها او يعرف حلاوتها وهي غير الكتابة التي تتعلق بالبلاغة والحساب .

وفي هذا الجزء كثير من درر الأقدمين خليقة بأن يتنافس في اقتنائها وينظر فيها الدارسون نظر تأمل وتفكير ونكرر ثناء للأستاذين الناشرين وللجنة التأليف والترجمة والنشر التي أخرجت الكتاب في هذا الوقت الصعب على أحسن ما يجب نشره للناس ورجاؤنا ان توفق الى نشر أمثاله خدمة للآداب وإحياء لآثار أجدادنا

محمد كرد علي